الجمال البائس

ـ ٣ ـ

قال الراوي :

نظرتُ إليها ، ونظرتْ : أمّا هي ، فرَنَت إليَّ[١] في سكونٍ ، وكانت نظراتُها معاتبةً طويلةً ، فيها التملُّق والتوجُّع ، وفيها الانكسار ، والفتور ، وفيها الاسترخاءُ ، والدلال .

وبينا كان طَرفها ساجياً فاتراً كأنَّه ينظر أحلامه ، إذ حدَّدته[٢] إليَّ فجأةً ، ونظرت نظرةَ مدهوشٍ ، فبدت عيناها فزعتين ، ولكن في وجهٍ مطمئن .

ثمَّ لم تكد تفعل حتّى ضيَّقت أجفانها ، وحدَّقت النَّظر متلألئاً بمعانيه ، فبدت عيناها ضاحكتين ، ولكن في وجهٍ متألم .

ثُم ابتسمت بوجهها ، وعينيها معاً ، وأتمَّتْ بذلك أجملَ أساليب المرأةِ الجميلة المحبوبةِ في اعتراضها على مَنْ تحبُّه ، وجدالِها مع فكره ، وكسْر حُجَّته في كِبريائه ، وانتزاعِ الفكرة المستقلَّةِ من نفسه .

وأمّا أنا ؛ فكان نظري إليها ساكناً ، متألماً ، يُقِرُّ : أنه عجَزَ عن جوابِ عينيها ، وسيبقىٰ عاجزاً عن جواب عينيها . . .

إنَّ وجهها هو الابتسامُ ، وروحُ الابتسام ، وجسمَها هو الإغراءُ ، وروح الإغراء ، وفنَّها هو الفتنة وروحُ الفتنة ؛ وهي بهذا كلِّه ، هي الحبُّ وروح الحبِّ ؛ غير أنَّ فهمها على حقيقتها في النّاس يجعلُ ابتسامها عَداوةً من وجهها ، وإغراءها جريمةً لجسمها ، وفنَّها رذيلةً في جمالها ؛ وهي بهذا كلِّه ، هي الشَّقاءُ ، وروحُ الشَّقاء .

* * *

(١) « رنت إلي » : أطالت النَّظر إليَّ في سكون طَرْفٍ .
(٢) « حددته » : أحدَّ بصره : نَظَر نظراً شديداً .

أمّا أنّي أحبُّ ؛ فنعمْ ، ونِعِمّا ، بل أراه حبّاً فالقاً كبدي ، وليس يخلو فؤادي أبداً من سوالِف حُبٍّ مضى ؛ وأمّا أنّي أستزْذِلُ في الحبِّ ، وأمتهنُ فضيلتي ، وأنزلُ بها ، فلا ، وأبداً .

إنَّ ذلك الحبَّ هو عندي عملٌ فنّيٌّ من أعمال النَّفس ، ولكنَّ الفضيلة هي النَّفسُ ذاتها ؛ والحبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ في زمني ؛ أمّا الفضيلةُ فهي زمني كلُّه ؛ وذلك الجمالُ هو قوّةٌ من جاذبيةِ الأرضِ في مدَّتها القصيرة ، ولكنَّ الفضيلة جاذبيةُ السَّماء في خُلودها الأبديِّ .

على أنه لا منافرة بين الحبِّ والفضيلة في رأيي ، **فإنَّ أقوى الحبِّ ، وأملأه بفلسفة الفرح والحزن ، لا يكون إلا في النَّفس الفاضلة المتورِّعة عن مقارفة الإثم . وهاهنا يتحوّل الحبُّ إلى ملكةٍ ساميةٍ في إدراكِ معاني الجمال ، فيكون الوجه المعشوق مصدرَ وحيٍ للنَّفس العاشقة ؛ وبهذا الوحي ، والاستمداد منه ينزل المحب من المحبوبِ منزلةَ من يرتفع بالآدميَّة إلى الملائكيَّة**[1] **، ليتلقَّىٰ النُّورَ منها فناً بعد فنٍّ ، والفرحَ معنىً بعد معنىً ، والحزنَ السَّماويَّ فضيلةً بعد فضيلةٍ .**

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ نفسيَّةٌ لاتِّساعِ بعضِ العقولِ المهيَّأة للإلهام ، كي تحيطَ بأفراح الحياة ، وأحزانها ، فتبدِع للدُّنيا صورةً من صُورِ التَّعبير الجميلة الَّتي تثير أشواق النَّفس ؛ كأنَّ كلَّ محبٍّ وحبيبتَه من هؤلاء الملهمين ، هما صورةٌ جديدة من آدَم وحواء ، في حالة جديدة من معنى تركِ الجنَّة ، لإيجاد الصُّورة الجديدة من الفرح الأرضيِّ والحزن السَّماويِّ .

والخطر في الحبِّ ألا يكون فيه خطرٌ . . . فهو حينئذٍ نِداءُ الجنس ، لا يكون إلا دنيئاً ، ساقِطاً ، مبذولاً ، فلا قيمةَ له ، ولا وحيَ فيه ؛ إذ يكونُ احتيالاً من عمل الغريزة ، جاءت فيه لابسةً ثوبَها النُّورانيَّ من شوق الرُّوح ؛ لتخدعَ النَّفس الأخرى ، فيتَّصل بينهما ، حتَّى إذا اتَّصل بينهما خلعت الغريزة هذا الثَّوبَ ، واستعلنت : أنَّها الغريزةُ ، فانحصر الحبُّ في حيوانيته ، وبطلت أشواقه الخياليَّةُ أجمع .

* * *

(١) نحن لا ننسب للملائكة إلا على خلاف القاعدة المقرَّرة في علم الصرف ، ونرى أنَّ مخالفة القاعدة هي القاعدة في هذه اللفظة ، وفي ألفاظ أخرى . (ع) .

قال الرَّاوي :

وعرفتِ الحسناءُ هذا كلَّه من عَرضها نظرةً ، وتلقِّيها نظرةً غيرَها ، فقالت للأستاذ (ح) : أمَّا أن يكون مع أثر الشِّعر ، والفكر ، في الجمال ، ودعوى الحبِّ ، أثرُ الزُّهد في الجسم الجميل ، وادِّعاءُ الفضيلة ، فإنَّ بعيداً أن يجتمعا .

قال (ح) : وأين تُبعدينه ويحك عن هذه المنزلة ؟ إنِّي لأعرف مَنْ هو أعجبُ من هذا !

قالت : وماذا بقي من العجب ، فتعرفه ؟

قال : أعرف رجلاً متزوِّجاً ، أحبَّ أشدَّ الحبِّ ، وأمَضَّه ، حتَّى استهام ، وتدَلَّه ، فكان مع هذا لا يكتب رسالةً إلى حبيبته حتَّى يستأذن فيها زوجته ؛ كيلا يعتدِيَ على شيءٍ من حقِّها . وزوجته كانت أعرف بقلبه ، وبحبِّ هذا القلب ، وهي كانت أعلمَ أنَّ حبَّه وسُلوانه إنَّما هما طريقتان في الأخذ ، والتَّرك بين قلبه ، وبين المعاني ، تارةً من سبيل المرأة وجمالها ، وتارةً من سبيل الطَّبيعة ومحاسنها .

فتنهَّدَت ، وقالت : يا عجَباً ! وفي الدُّنيا مثل هذا الزَّوج الطَّاهر ؟! وفي الدُّنيا مثل هذه الزَّوجة الكريمة ؟!

ثمَّ إنَّها وجَمَتْ هُنَيْهةً تجتمع في نفسها اجتماع السَّحابة ، ثُمَّ استدمَعَت ، ثمَّ أرسلتْ عينيها تبكي ، فبدرْتُ أنا أُرَفِّه عنها ، حتَّى كفْكفَتْ من دمعها ، وكأنَّ (ح) قد وخَزها في قلبها وخزةً أليمةً بذكره لها الزَّوجة ، ثمَّ الزَّوجة الطَّاهرة ، ثمَّ الطَّاهرة حتَّى في وسوسة شيطان الغيْرة : ارتفع ثلاث مرَّاتٍ بالزَّوجة ؛ لترى هذه المسكينة أنَّها سلافةٌ ثلاث مرَّاتٍ ، وكأنَّه بهذا لم يكلِّمها ، بل رسَم لها صورتها في عيشها المخزي ، وقال لها : انظري . . . . . . !

* * *

وياما كان أجملها ! يَترقرق الدَّمع في عينيها الفاتنتين الكحيلتين ، فيبُثُّ منهما حزناً ، يخيَّل لمن رآه : أنَّه من أجلها سيَحزن الوجودُ كلُّه !

ليس البكاءُ من هاتين العينين بكاءً عند من يراه إذا كان من العاشقين ! بل هو فنُّ الحزن ، يضع جمالاً جديداً في فنِّ الحسن ؛ وأكاد أعجب : كيف وجَدَ الدَّمع مكاناً بين المعاني الضَّاحكة في وجهها ، لو لم يكن هذا الدَّمع قد جاء ليظهر على وجهها

الفنّ الآخر من جمال المعاني الباكية !

* * *

وسألتها : ما الّذي خامرَ قلبَك من كلام الأستاذ (ح) فأبكاكِ ، وأنت كما أرى يتألّقُ النُّور على جدران المكان الّذي تَحُلِّين به ، فيظهر المكان وكأنّه يضحك لك ؟

فتشكّكت لحظةً ، ثمّ قالت : أبك ما تقول ، أم أنت تتهكّم بي ؟!

قلت : كيف يخطر لك هذا ؛ وأنا أحترم فيك ثلاث حقائق : الجمالَ ، والحبَّ ، والألم الإنسانيّ ؟

قالت : لا تثريب عليك[1] ، ولكن صوِّرْ لي ببلاغتك كيف أحببتُك ؛ وأنت غير مُتحبِّب إليّ ، وكيف جادلتُ نفسي فيك ، وداوَرْتُها عنك ، وكلَّما عزمتُ ؛ انحلَّ عزمي ؟ فهذا ما لا أكاد أعرف كيف وقع ، ولكنَّه وقع ، هذه قطرةٌ من الماء الصَّافي العذب ، فضع عليها (المكرسكوب) يا سيدي ! وقل لي : ماذا ترى ؟

قلت : إنَّك تُخرجين من السُّؤال سؤالاً . فما الّذي خامرَ قلبك من كلام (ح) فبكيتِ له ؟

قالت : إذاً فليست هي قطرةٌ من الماء ، بل تلك دمعةٌ من دموعي ، فضع عليها المكرسكوب يا سيدي !

قال الرّاوي :

وكانت حزينةً كأنَّها لم تسكت عن البكاء إلا بوجهها ، وبقيت روحُها تبكي في داخلها . فأراد الأستاذ (ح) أن يستدرك لغلطته الأولى ، فقال : إنَّك الآن تسألينه حقّاً من حقوقك عليه ، فكلُّ امرأةٍ يحبُّها هي عَروس قلبه ولها على هذا القلم حقُّ النَّفقة . . .

فضحكت نوعاً طريفاً من الضَّحك الفاتر ، كأنَّما ابتكره ثغرها الجميل لساعة حزنها ؛ ونظرتْ إليّ ؛ فقلت : إنْ كان الأمر من نفقة العروس على القلم ؛ فما أشبه هذا (بلا شيء) جُحا .

فضحكتْ أظرفَ من قبل ، وخُيِّلَ إليّ أنَّ ثغرها انطبق بعد افترارِه على قبلةٍ

(١) أي : لا عتب عليك . (ع) .

أفلتت منه ، فأمسكها من آخرِها . . .

ثمَّ قالت : ما هو (لا شيء) جُحا ؟

قلت : زعموا أنَّ جُحا ذهب يحتَطِب ، وحملَ فوق ما يطيق ، فبهظَهُ[1] الحِمْلُ ، وبلغ به المشقَّة ، ثمَّ رأى في طريقه رجلاً أبلهَ ، فاستعانَ به ، فقال الرَّجل : كم تعطيني ؛ إذا أنا حملت عنك ؟ قال : أعطيك (لا شيء) . قال : رضيت .

ثمَّ حمل الأبلهُ ، وانطلق معه ؛ حتَّى بلغا الدَّار ، فقال : أعطني أجري . قال جحا : لقد أخذتَه . واختلفا . هذا يقول : أعطني ، وهذا يقول : أخذتَ ؛ فلبَّبهُ الرَّجل[2] ، ومضى يرفعه إلى القاضي ، وكانت بالقاضي لُوثةٌ ، وعلى وجهه رَوْعَةُ الحُمق[3] تخبرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه ، فلمَّا سمع الدَّعوى ؛ قال لجحا : أنت في الحبس ، أو تعْطيَهُ (اللا شيء) . . .

قال جحا في نفسه : لقد احتجْت لعقلي بين هذين الأبلهين ! ثمَّ إنَّه أدخل يده في جيبه ، وأخرجها مُطبقةً ، وقال للرَّجل : تقدَّم ، وافتح يدي . فتقدَّم وفتحَها . قال جحا : ماذا فيها ؟ قال الرَّجل : (لا شيء) .

فقال له جحا : خذ (لا شيئَك) وامض فقد بَرِئت ذمَّتي .

قالوا : فذهب الرَّجل يحتجُّ ، فقال له القاضي : مَه ! أنت أقررتَ أنَّك رأيت في يده (لا شيء) ، وهو أجرُك ؛ فخذه ، ولا تطمع في أزيدَ من حقِّك . . !

* * *

وضحكتْ ، وضحكنا ، ثمَّ قالت : أنا راضيةٌ أن أكونَ عروسَ القلم ، فليُجْرِ عليَّ القلمُ نفقَتي ، وليصوِّرْ لي كيف أحببتُ ، وكيف آمرتُ نفسي ، وجادلتُها ؟

قلت : لا أتكلَّم عنكِ أنت ، ولا أستطيعُه ؛ بَيْدَ أنَّني لو صنَّفْت روايةً يكون

---

(١) « بهظه » : بهظه الحمل : أثقله ، وشقَّ عليه .

(٢) أخذ بتلابيبه . (ع) .

(٣) « اللوثة » ـ بضم اللام ـ : مسٌّ من الجنون ، وتكون أيضاً بمعنى الحمق ، ورَوْعة الحمق : علاماته ، وهي معروفةٌ في علم الفراسة . (ع) .

فيها هذا الموقفُ ، لوضعْتُ على لسان العاشقة هذا الكلام ، تُحَدِّثُ به نفسها .

تقول : كيف كنتُ ، وكيف صرتُ ؟ لقد رأيتُني أعاشرُ مئة رجلٍ ، فأخالطُهم في شتَّى أحوالهم ؛ وأصرِّفهم في هوايَ ، وكلُّهم يجهدُ جُهده في استمالتي ، وكلُّهم أهل مودَّةٍ ، وبَذْلٍ ، وما منهم إلاَّ جميلٌ مخلصٌ ، قد أنِقَ ، وتجمَّل ، وراع حسنُه ؛ كأنَّما هَرَبَ إليَّ في ثياب عُرسه ليلةَ زفافِه ، وترك من أجلي عروساً تبكي ، وتصيح بوَيلها ؛ ثمَّ أنا مع ذلك مُغلقةُ القلب دونهم جميعاً : أَصْدُقهم المودَّةَ ، والصُّحبة ؛ وأكذِبُهم الحبَّ ، والهوى ؛ فلست أحبُّهم إلا بما أنالُ منهم ، ولست أتحبَّبُ إليهم إلا ما أنوِّلهم منِّي ؛ وهم بين عقلي ، وحيلتي رجالٌ لا عقولَ لهم ، وأنا بين أهوائهم ، وحَماقاتهم امرأةٌ لا ذات لها .

ثمَّ أرى بغتةً رجلاً فرداً ، فلا أكاد أنظر إليه ، وينظرُ إليَّ ؛ حتَّى يَضَعَ في قلبي مسألةً تحتاج إلى الحلِّ . . .

وأرتاعُ لذلك ، فأحاولُ تناسِيَه والإغضاءَ عنه ، فتَلِجُّ المسألة في طلب حلِّها ، وتشغَلُ خاطري ، وتتمدَّد في قلبي ؛ وهو هو المسألة . . .

فأفزعُ لذلك ، وأهتمُّ له ، وأجهَد جهدي أن أكونَ مرَّةً حازِمةً بصيرةً ، كرجال المال في حقِّ الثَّروة عليهم ؛ ومرَّةً قاسيةً عنيدة ، كرجال الحرب في واجبها عندهم ؛ ومرَّةً خبيثةً مُنكرةً ، كرجال السِّياسةِ في عملها بهم ؛ ولكنِّي أرى المسألة تلينُ لي ، وتتشكَّل معي ، وتحتمل هذه الوجوه كلَّها ، لتبقى حيث هي في قلبي ؛ فإنَّه هو هو المسألة . . .

وأغتمُّ لذلك غمّاً شديداً ، وأُراني سأسقط بعد سقوطي الأوَّل ، وأقبح منه ؛ إذ الحياة عندنا قائمةٌ بالخِداع ، وهذا يُفسدُه الإخلاص ؛ وبالمكر ، وهذا يعطلُه الوفاء ؛ وبالنِّسيانِ ، وهذا يُبطله الحبُّ ؛ وإذ عواطِفنا كلُّها متجرِّدةٌ لغرضٍ واحدٍ ، هو كسب المال ، وجمعُه ، وادِّخاره ، وفضيلتُنا عمليَّةٌ لا تتخيَّل ، حسابيةٌ لا تختلُّ ؛ فيستوي عندنا الرَّجلُ بلغ جماله القمرَ في سمائه ، والرَّجل بلغت دَمامته الذُّبابَ في أقذاره ، والحبُّ معنا هو : كم في كم ، ويبقى ماذا . . . أو كما يقول أهلُ السِّياسة : هو « النُّقطة العمليَّة في المسألة » ؛ ولكنَّ المسألة الَّتي في قلبي لا ترى هذا حلاًّ لها ؛ لأنَّه هو هو المسألة . . .

فيزيدُ بي الكربُ ، ويشتدُّ عليَّ البلاء ، وأحتالُ لقلبي ، وأُدبِّر في خنقه ، وأذهبُ أقنعه : أنَّ الرَّجلَ إذا كان شريفاً ؛ لم يحبَّ المرأةَ السَّاقطةَ ؛ إذ يُعابُ بصحبتها ، والاختلافِ إليها ، فإذا كان ساقطاً ؛ لم تحبَّه هي ، فإنَّما هو صَيدُها ، وفريستها ، وموضع نقمتها من هذا الجنس ، وأسرِفُ على قلبي في الملامةِ ، والتَّعذيل ، فأقولُ له : ويحك يا قلبي ! إنَّ المرأةَ منَّا إذا تفتَّح قلبها لحبيبٍ ؛ تفتَّح كالجُرح ؛ لِينزِفَ دِماءَه لا غير . فيقتنع القلبُ ، ويُجمع على أن ينسى ، وأن يَرجِعَ عن طلبه الحبَّ ، وأرى المسألة قد بطلت ، وكان بُطلانها أحسنَ حلٍّ لها ، وأنامُ وادعةً مطمئنةً ، فيأتي هو في نومي ، ويدخل في قلبي ، ويعيدُ المسألة إلى وضعها الأول ، فما أستيقظ إلا رأيته هو هو المسألة . .

فأتناهى في الخوف على نفسي من هذا الحبِّ ، وأراه سجنها ، وعقابَها ، وقهرَها ، وإذلالها ، فأقول لها : ويلكِ يا نفسي ! إنَّما همُّك في الحياة وسائلُ الفوز ، والغلبُ ، فأنتِ بهذا عدوَّةٌ مسمَّاةٌ في غفلة الرِّجال صديقةً ، وقد وُضِعت في موضعٍ تعيشين فيه بإهاناتٍ من الرِّجال ، يسمُّونها في نذالتهم بالحبِّ ؛ فأنت عدوَّةُ الرِّجال بمعنىً من الدَّهاء ، والخبث ، وعدوَّة الزَّوجاتِ بمعنىً من الحقد ، والضَّغينة ، وعدوَّة البغايا أيضاً بمعنى من المغالبة ، والمنافسة ، وكلُّ ما يستطيع الدَّهاءُ أن يعمله ؛ فهو الَّذي عليَّ أنا أن أعملَه . فماذا أصنع ؛ وأنا أحبُّ ؟ وكيف أنجحُ ؛ وأنا أحبُّ ؟ ولكنَّ النَّفس تجيبني على كلِّ هذا بأنَّ هذا كلَّه بعيدٌ عن المسألة ما دام هو هو المسألة . .

* * *

قال الرَّاوي :

وكانت كالذَّاهلة ممَّا سمِعت ، ثمَّ قالت : ألك شيطان في قلبي ؟ فهذا كلُّه هو الَّذي حدث في سبعة أيامٍ .

قال (ح) : ولكن كيف يقعُ هذا الحبُّ ؟ وهَبْك صنَّفت تلك الرِّواية ؟ ووضعت على لسان العاشقة ذلك الكلام ، فبماذا كنت تُنطقها في وصف حبِّها ، وما اجتذبها من رجلٍ فاز بقلبها ، ولم يُداوِرها ، بعد مئة رجلٍ كلُّهم داورها ، ولم يَفز منهم أحد ؟ أتكون في وجه هذا الرَّجلِ أنوارٌ كتباشيرِ الصُّبح تدلُّ على النَّهار الكامِن فيه ؟

قالت هي : نعم ! نعم ! بماذا كنتَ تُنطقها ؟

قلتُ : كنت أضع في لسانها هذا الكلامَ ، تُجيبُ به عاذلةً تعذُلها :

تقول : لا أدري كيف أحببته ! ولكن هذه الشَّخصيةَ البارزةَ منه جذبتني إليه ، وجعلت الهواءَ فيما بيني وبينه مُفعَماً بالمغناطيس مصدرُه هو ، ومعناه هو ، ولا شيء فيه إلا هو !

عرضته لي شخصيته ظاهراً ؛ لأنَّ جوابَ شخصيته فيَّ ، وأصبح في عيني كبيراً ؛ لأنَّ جواب شخصيتي فيه ؛ ومن ذلك صارت أفكاري نفسها تزيده كلَّ يومٍ ظهوراً ، وتزيدني كلَّ يومٍ بَصراً . وأعطاه حقُّه في الكمال عندي حقَّه في الحبِّ منِّي ! وبتلك الشَّخصية ؛ الَّتي جوابُها في نفسي أصبحَ ضرورةً من ضرورات نفسي .

* * *

قال الرَّاوي :

ولمَّا رأيتها في جوِّي ، نسيمِه ، وعاصِفتِه ؛ أردتها على قِصَّتها ، وشأنها ، فماذا قلتُ لها ، وماذا قالت ؟ . .

* * *